مجلة "نتائج الفكر" الصادرة عن معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

المجلد السادس. العـدد الأوّل. الرقم التسلسلي 09
السنة 2022. ص 138 – 151
ISSN 2477-992x / EISSN 2773-2762

جهود علماء النحو العربي والبلاغة القدامى في خدمة اللغة العربية(ابن مضاء القرطبي)، أنموذجا.

Efforts of the ancient scholars of Arabic grammar and rhetoric in the service of the Arabic language(IbnAl ،Qurtubi ،)a model.

د. مصطفاوي أسماء

المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة. (الجزائر) mostfaoui@cuniv ،naama.dz

تاريخ الإرسال: 2022/01/13	تاريخ القبول: 2022/02/06	تاريخ النشر: 2022/04/20

ملخص البحث

أحاول في هذه الورقة العلمية أن أعرج على أهم آراء ابن مضاء القرطبي، وجهوده النحوية من خلال كتابه الرد على النحاة، فقد عُرف عن علماء الأندلس أنّهم اتّبعوا كثيرا من الطرق والأساليب في تدريس النحو العربي وتيسر قواعده، بل وصل ببعضهم الحدّ إلى شنّ ثورة عنيفة قصد التسهيل، وكان ابن مضاء أشهر هؤلاء العلماء الذين ثاروا ضدّ قيود النحو وأغلاله المتمثلّة في العلل النحوية الثواني منها والثوالث، ونظرية العامل وغيرها.

كلمات مفتاحية: النحو، العلة، التيسير، العربية، العامل.

Abstract:

Grammar is one of the most valuable and beneficial sciences, but it did not receive many studies, based on accurate scientific statistics and a closer look. This was due to the lack of modern scientific methods. The difficulty of grammar and the complexity of its issues, as well as the difference in dialects in Arab societies, and the presence of many researchers still prefer the easy and go down the easy path, to review what was presented by the former and thus get away from going into the principles of grammar and its secrets, so another method emerged. It was followed by grammar scholars in Andalusia in order to facilitate and simplify the Arabic grammar and guide its rules for students and disciples, representing a violent revolution launched by some scholars of Andalusia, whose goal was to facilitate that of the Ibn Mudhaa al ،Qurtubi revolution, which revolted a great revolution to break all the limitations of grammar and its chains represented in grammatical ills Trinities, worker theory and others.Through this research paper, I tried to highlight the most important opinions and grammatical efforts through his book Response to grammarians.

Keywords: grammar, reason, facilitation, Arabic, worker

المؤلّف المرسل: د مصطفاوي أسماء ostfaoui@cuniv ،naama.dz

مقدمة:

ما إن سطعت شمس الإسلام على بلاد الأندلس الواقعة جنوب أوروبا حتى أخذت الأندلس تنهل من معين العلم الإسلامي الذي غطى العالم في عصر بني أمية، الذين حكموا العالم الإسلامي قرابة المائة عام فنشروا فيه العلم والمعرفة، ثم انتقلوا إلى بلاد الفرنجة لينشروا شمس الحق هناك.

ولقد كان الفتح الإسلامي لتلك البلاد، بداية لنشر مختلف العلوم فيها وتخليصها من قمة الجهل وظلمته، فانتشرت في تلك البلاد شتى العلوم من الفلسفة والطب وعلم النبات[1] وكان لعلم اللغة العربية وعلم النحو على وجه الخصوص النصيب الأكبر و الأوفر حيث حظي باهتمام الأندلسيين، كما هو حاله في المشرق العربي، وليس غريبا أن يلقى هذا العلم اهتماما عظيما عند أهل المشرق و المغرب وذلك لصلته الوثيقة بمصدري التشريع الإسلامي الكتاب –القرآن الكريم– والسنة –الحديث الشريف–[2].

وما إن مضت حقبة من الزمن على علماء الأندلس وهم يأخذون الكتب المشرقية كما هي، يدرسونها لطلابهم ومريديهم، و انتقالهم من تلك المرحلة إلى مرحلة أخرى، تمثلت في شرح تلك الكتب أو التعليق عليها [3]. حتى قضت البداهة أن إنعام الفكر في المسائل موح وملهم باستكمال بعض النقص الفائت، وهذا ما كان من الأندلسيين بعد استغنائهم عن المشارقة، بعد أن أنسوا في أنفسهم قدرة على التأليق، فعدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو وخالفوهم في مناهج تعليمه وتدوينه، واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم، فاستحدثوا مذهبا رابع عرف بمذهب الأندلسيين، الذي ظهرت مبادئه في أوائل القرن الخامس الهجري الذي يعد بحق فجر الثورة النحوية في هذه البلاد [4]، ونمت الحركة العلمية، وكثر العلماء، وتباروا في تصنيف المؤلفات .

وما حديثنا في هذه الورقة البحثية إلا على عالم نبيه ورائد من رواد هذا المذهب الظاهري، ألا وهو ابن مضاء القرطبي وآرائه وجهوده في تيسير النحو، فقد اعتبرت دعوته في إعادة النظر في المسائل النحوية العديدة التي خالف فيها علماء المشرق، من ذلك إعادة النظر في نظرية العامل أو بالأحرى إلغائها، ثورة في مجال الدرس اللغوي عموما والدرس النحوي بصفة خاصة، نظرا للعناية التي أولاها المعتمون به وبقضايا النحو واللغة، بحيث أعتبر هذا العالم في نظر هؤلاء بدعا متفردا، استطاع بشجاعته، وبفكره الثاقب أن يهتدي إلى إبراز واكتشاف الثغرات المنهجية في الدرس

النحوي القديم، بل عد مجددا من الطراز الأول في هذا الصدد، غير أن الانطباع عن الرجل لم يحل دون أفكاره بالنقد اللادغ تارة، وبمسايرته تارة أخرى.

ولمناقشته آرائه وتجديداته النحوية حاولنا العودة إلى أشهر مؤلفاته (الرد على النحاة)، الذي نشره شوقي ضيف، هذا الكتاب الذي حاول فيه ابداء رأيه في معالجة قضايا عدة، من ذلك نظرية العامل وما أحدثه من ضجة، وكذا موقفه من العلل الثواني والثوالث، والأمر نفسه بالنسبة للقياس النحوي، والتمارين غير العملية وكل ما لا يفيد نطقا.

وقبل أن نعرض المحاولات التيسيرية التي تطرق إليها ابن مضاء القرطبي، لابد أن نورد تعريفا لهذه الظاهرة (التيسير)، وذلك بتحديده بتعريف واضح .

فلقد ذكر عبد الرحمن الحاج صالح أن تيسير النحو : " هو تكييف النحو والصرف مع المقاييس التي تقضيها التربية الحديثة عن طريق تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلمين، فعلى هذا ينحصر التيسير في كيفية تعليم النحو لا في النحو ذاته "[5].

01- موقف ابن مضاء القرطبي من العامل النحوي:

لقد اقتنع القدامى لما صنعوه، ولم نجد منهم من حاول أن يتمرد على هذه النظرية، إلا النحوي الأندلسي ابن مضاء القرطبي صاحب الصوت المرتفع الثائر على النظرية في رده على النحاة الذي نحن بصدد دراسته، فقد حظيت دعوته إلى إلغاء العامل بعناية فائقة، فمنذ أن نشر شوقي ضيق هذا الكتاب والدراسات تتوالى والبحوث تتعاقب، محاولة استكشاف حقيقة دعوته .ولقد كتب لهذه الدعوة أن تجد أكثر من نصير لأنها صادفت اكتساح موجة وصفية في الدراسات العربية النحوية، وقد اعتبروا ابن مضاء عبقرية نادرة وعقلية متفردة استطاعت بفكرها الثاقب أن تهتدي إلى اكتشاف الثغرات المنهجية في الدرس النحوي القديم[6].

ولهذا أراد ابن مضاء أن يكون تناول نظرية العامل بالنقد والتوهين هو أول مباحث الكتاب وذلك لأهمية الموضوع (العامل) واستهل حديثه عنه بتوطئة أبان فيها عن قصده من محاولته وسجل أنه لا يستغرب أن يكون للمتأخرين نقد لبعض آراء المتقدمين وكان مقتنعا بمقدرة المتأخرين على الإضافة والتعقيب على ما قاله المتقدمون[7].

ويشرع ابن مضاء في نقد العامل فيسجل مسؤوليتها عن تحريف الكلام العربي عن مساره الصحيح لما تقحمه من تقديرات لا دليل عليها متأثرا بمذهبه الظاهري الذي كان يدين به حيث

كان في مذهبه ظاهريا يقدس النص اللغوي ويقف أمامه ويتمسك بحرفيته وعدم الخروج على معانيه الظاهرة[8].كما رفض كل ما ينتج عن تضييق نظرية العامل في الدراسات النحوية من تأويل وزيادة في النص اللغوي الأصلي مما ليس منه، فاللغة في رأي الظاهرية مقدسة وكاملة لا تحتاج إلى تعديل أو زيادة لأنها من عند الله خالق كل شيء، فهي توقيفية وأن العامل فيها هو المتكلم نفسه، وليس شيئا محذوفا يجب تقديره [9] وهنا فهو ينفي السببية عن النصوص إلا إذا كان السبب منصوصا عليه ويعتقد أن كل نص يقتصر على موضوعه ولا يتجاوزه[10] وانطلاقا من هذا الرأي المحسوم عنده يمكن أن نخلص إلى أهم الحجج التي احتج بها لنقد نظرية العامل وبيان فسادها ومدى خطرها على النحو دراسته، بما تجره على النحو النحاة من الفوضى والاضطراب [11] .

1- القول بالعمل لا يعتبر إجماعا، فلقد حاول ابن جني التنكر للنظرية حينما نسب الفعل أو العمل للمتكلم[12]، فابن جني على هذا متقدم في النقد، وهو ليس ممن يسهل تجاوزه.

2- إن ما أسماه النحاة عوامل لا يصلح أن يعمل بطبع أو بإرادة، ذلك أن الفاعل للشيء لا يمارس فعله إلا بإرادته أو بطبع كالنار تحرق بطبعها[13].

3- وينصرف ابن مضاء إلى الحديث عن إدعاء الحذف في الكلام فيسجل أن النحاة يرون أن المحذوف قد يكون كلاما لا يستقيم المعنى إلا بتقديره أو إظهاره، كقولك لمن رأيته يعطي الناس زيدا أي أعط زيدا ويرى أن المحذوفات التي يستقيم لها الكلام واردة في القرآن الكريم وهي مرادة ولكن حذفها أكسب اللفظ وجازة وخفة ؛وقد يكون المحذوف كلاما لو ظهر لأورث الأسلوب ثقلا لأن المعنى واضح بين جلي من غير تقدير له كما هو في :أزيدا ضربته فالنحاة يقدرون أضربت زيدا، وهذه دعوى لا دليل عليها ويا ليت شعرى ما الذي يضمرونه في قولهم أزيدا مررت بغلامه[14].

فهو إذن لا يقبل من ظاهرة الحذف إلا الذي تبين له أن المعنى يستدعيه وفي المقابل فهو يرفض التقديرات الصناعية التي هي من صنيع النحاة.

فهو يعترض وبشدة على تقدير العوامل المحذوفة كالضمائر المستترة في المشتقات والأفعال أو متعلقات المحذوفات أو حتى تقدير المحذوف، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام، وقد كان اعتراضه عليها بوصفها دليلا على فساد نظرية العامل، واتخذ ابن مضاء القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدرا أساسيا في رده على التقدير للعوامل المحذوفة، حيث إن الرسول ص.يقول:"من قال في القرآن برأيه فلقد أخطأ"[15] فأنت عندما تقدر أن هناك محذوفا في القرآن

الكريم فقد خالفت ووقعت في الحرام فمن بنى الزيادة في القرآن بلفظ أو معنى على ظن باطل فقد تبين بطلانه، فقد قال في القرآن بغير علم...ومما يدل على أنه حرام الإجماع، وعلى أنه لا يزاد في القرآن لفظ غير المجمع على إثباته، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ بل هي أحرى لأن المعاني هي المقصودة والألفاظ دلالات عليها ومن أجلها"[16].

فابن مضاء في نظرته إلى النحو يرفض كل تلك التقديرات والمحذوفات، ويقف إلى جانب النص اللغوي، فالتقدير في نظره نوع من التخيل والظن ولا يستند إلى أي دليل، وهنا يبرز تأثره بالمذهب الظاهري الذي يرفض الزيادة في النص دون دليل فهي حرام .[17]

ومن المضمرات التي قدرها النحويون ورفضها ابن مضاء نضرب الآتي:

أ- **إضمار فعل متعد بعد حرف النداء**:فالنحاة يقولون :إن الجملة :يا عبد الله فيها فعل محذوف تقديره أدعو أو أنادي في حين ابن مضاء يرى أنه لا داعي لهذا التقدير لأنه سيؤدي إلى تغير المعنى وتحويله من أسلوب الإنشاء إلى أسلوب الخبر[18].

ب**- إضمار أن بعد الفاء السببية أو الواو:**

فالنحاة يرون أن الفعل المضارع بعد هذه الحروف منصوب بأن المضمرة، في حين أن ابن مضاء ينتقد ذلك ويرفضه لأن فيه نقص في المعنى واختلالا في المراد [19].

وفي نطاق استهجان هذه النظرية يناقش ابن مضاء النحاة في عدم اكتفائهم بجعل الجار والمجرور خبرا أو حالا أو وصفا فهو يقول في:

ج - **تقدير متعلقات المجرورات**:يرى النحاة أن شبه الجملة من الجار والمجرور لا تأتي خبرا أو صفة أو حالا أو صلة، بل هي متعلقات بمحذوفات، فمثلا زيد في الدار أو رأيت الذي في داره أومررت برجل من قريش، فيزعم النحويون أن قولنا في الدار متعلق بمحذوف تقديره زيد مستقر في الدار وذلك لأنهم قيدوا بقاعدة نحوية وهي أن حروف الجر إذا لم تكن زائدة ودخلت على تلك الأسماء فلابد لها من عامل يعمل فيها إما أن يكون ظاهرا كقولنا:زيد قائم في الدار، أو مضمرا كقولنا :(زيد في الدار) كان.ويرى أن هذا كله كلام تام لا يفتقر اليه السامع له الى زيادة (كائن)[20] .و ابن مضاء يرى أن هذه التقديرات من شأنها أن تضيف صعوبة للنحو وتدريسه، لذلك لابد من التخلص منها

والابتعاد عن التقدير، بل واعتبار الجار والمجرور محل رفع الخبر، أو نصب الحال وما إلى ذلك، لأن هذا أسهل وأيسر وأعم للفائدة.[21]

ولكي يقيم ابن مضاء الدليل القاطع على فساد نظرية العوامل والمعمولات عرض بابين من أبواب النحو ليبين كيف أثرت نظرية العامل فيهما.

وأول البابين باب التنازع من ذلك أن كل عامل لابد له من معمول واحد[22] مثلا :" أقبل وجلس إخوتك"[23] كما لا يجتمع عاملان على معمول واحد أو بعبارة أخرى لا يصح أن يتسلط مؤثران على أثر واحد، واختار البصريون أن يعملوا العامل الثاني في الصيغة المارة ويضمرون في العامل الأول فيقولون :" أقبل وجلس إخوتك" وبذلك رفضوا معا الصيغة العربية الصحيحة للعبارة، ووضعوا مكاناها صيغتين جديدتين لا تعرفها العربية .ولم يكتفوا في باب التنازع بعض هاتين الصيغتين، فقد مضوا يطبقون التنازع على بابي ظن وأعلم مسيغين أن يقال :" ظننت وظناني شاخصا الزيدين شاخصين" وهذا ما لم يلفظ به العرب – إنما لفظ به النحاة مستلهمين نظرية العوامل والمعمولات التي وضعوها [24].ويقول ابن مضاء أنه ينبغي أن ينحوها عن قواعد النحو وأبوابه حتى لايرفضوا من أجلها أساليب عربية سليمة ويضعوا مكانها عربية سقيمة [25].

أما الباب الثاني الذي ناقشه ابن مضاء هو باب الاشتغال:كل معمول ابد له من عامل، ووقف في نهاية الأمر إلى جانب النص اللغوي ورفض أي زيادة أو تقدير أو إضمار في النص حيث يصرح بذلك "..ولا يضمر رافع، كما لا يضمر ناصب، إنما يرفعه المتكلم، وينصبه إتباعا لكلام العرب "[26].إذ وزع النحاة الصيغ فيه إلى ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يترجح فيه الرفع أو النصب وما يجوز فيه الأمران مقدرين في أكثر الصيغ عوامل محذوفة لا دليل عليها في الكلام مثل "الكتاب قرأته –الكتاب قرأت صفحاته"إذ يقدرون الجملتين هكذا: " قرأت الكتاب قرأته–قرأت الكتاب قرأت صفحاته".وذكر ابن مضاء أنه لا دعي لكل هذه التقديرات وما يطوف فيها من أقسام قائلا:" إن السم المتقدم وهو الكتاب في المثالين السابقين إذا عاد عليه ضمير منصوب كما في المثال الأول نصب، أو متصل لمنصوب نصب أيضا، أما إذا عاد عليه ضمير رفع مثل " أزيد قرأ كتاب"فإنه يرفع على الابتداء.[27]

وفي محصلة القول عن العامل النحوي جدر بنا أن نقول أن ابن مضاء يرفض التخريجات الضنية عند القدامى المبنية على التكهنات والآراء الشخصية؛ ويدعو إلى تناول الأحداث اللغوية كما هي وذلك

لما لها من مميزات .وما سبق ذكره لايعني أن القدامى لم يتلفقوها بالدرس ويولوها الأهمية البالغة بالنقاش والتحليل، من ذلك الإمام الخليل ابن أحمد الفراهيدي كان من أول النحات الذين أدركوا فكرة العامل، النابعة من ملاحظته بين الحروف والحركات والكلمات . [28]

ولم تكن دعوة ابن مضاء القرطبي مقتصرة على نظرية العامل كأساس رئيسي من أسس النحو التقليدي، بل تعدته إلى أساس هام ومتين اعتمد عليه النحاة القدامى في بناء النحو العربي ألا وهو العلة النحوية وما يترتب على القول بها .

2-موقف ابن مضاء من العلة النحوية:

لقد وقف ابن مضاء القرطبي موقف الرافض المنكر للعلل القياسية والجدلية، وأطلق عليها العلل التواني والثوالث ويرى أنهما ليستا من ضروريات الدرس النحوي، وإنما هما افتراض جدلي [29] حيث يقول :" ومما يجب أن يسقط من النحو :العلل التواني والثوالث ذلك مثل سؤال السائل عن زيد من قولنا :قام زيد لما رفع فيقال :لأنه فاعل وكل فاعل مرفوع فيقول :ولما رفع الفاعل ؟.فالصواب أن يقال له كذا نطقت به العرب "[30].

ولم يكن موقف ابن مضاء من العلة مطابقا لمنهج الظاهريين الذين يرفضون جميع أنواع العلل فهو لم يطبقه بكل تفاصيله كما ذهب أغلب من ألفوا في هذا الموضوع بل تفرد في كثير من المسائل الأصولية للنحو العربي، ومنها تعليل الأحكام الذي هو أصل من أصول الفقهاء والنحويين على حد سواء [31].وعليه فقد أقر العلل الأول لفائدتها التعليمية التي تفيد الحكم النحوي ويمثل للعلة الأولى بقول النحاة :" إن كل فاعل مرفوع، وهي علة توضح حكم الفاعل الرفع، ولا باس بها، بل لعلها ضرورية[32].وذلك لأنه بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنطق بكلام العرب المدرك منا بالنظر، فهي تشبه إلى حد كبير العلل التعليمية عند الزجاجي. وواضح من هذا أن ابن مضاء يقبل بهذه العلل على أساس أنها تصف الظاهرة اللغوية كما هي [33].

أما فيما يخص إنكاره أو رفضه للعلل الثواني والثوالث فذلك لأنه يرى أنه لا فائدة ترجى منها فلا تفيدنا في شيء ولا يضرنا جهلها في شيء من ذلك فإن أجبت السائل عن سؤاله"لم رفع الفاعل"بأن تقول له للفرق بين الفاعل والمفعول فلم يقنعه وقال :فلم فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول قلنا له:لأن الفاعل قليل....والمفعولات كثيرة فأعطي الأثقل الذي هو الرفع للفاعل وأعطي الأخف الذي هو النصب للمفعول ....ليقل في كلامهم ما ويستثقلون ويكثر في

كلامهم ما يستخفون فلا يزيد ذلك علما بأن الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله، إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذي هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذي يوقع العلم"[34].

فهذه العلل عند ابن مضاء ليست إلا جهدا ذهنيا بحثا لا يقدم للنص اللغوي أي شيء جديد، وهي عنده تقابل العلل القياسية عند الزجاجي، كما أنها تقابل علة العلة عند ابن جني وقد رفضها أيضا كما أنها تشبه العلة الغائية عند أرسطو[35] .

مع ذلك فنحن نجد ابن مضاء يرتضي قبيل من العلل الثواني مثل العلة التي تذهب إلى أن كل ساكنيين التقيا في الوصل، وليس أحدهما حرف لين فإن أحدهما يحرك[36] .فإن قيل :ولم لم يتركا ساكنيين؟ أجيب بأن الناطق لا يمكنه النطق بهما ساكنين، بل إنه لم يجد غضاضة في استعمال العلة عند دراسته لإحدى المسائل النحوية.فمن ذلك تعليله لإعراب الفعل المضارع لشبهه بالاسم:فان قيل:"يضرب" لم أعرب؟ قيل: لأنه فعل أوله إحدى الزوائد الأربعة ولم يتصل به ضميرالمؤنث ولا نون خفيفة، ولا شديدة وكل ما هو بهذه الصفة فهو معرب . فان قيل:لم أعربت العرب ما هو بهذه الصفة، فقيل: لأنه أشبه الاسم، في أنه إذا أطلق للحال والاستقبال فهو عام[37] .

ومن هنا يتبين لنا أن ابن مضاء القرطبي قد أقر العلة الأولى وجانبا من العلة الثانية مخالفا في ذلك الظاهريون الذين دعوا إلى إلغاء جميع أنواع العلل فهم يرون أن النصوص معقولة المعنى في ذاتها، أي أنها في الجملة لمصلحة العباد، ولكن كل نص يقتصر على موضوع لا يتجاوزه قائل يفكر في قياس مفروض ولا علة مستنبطة فهم ينفون السببية في الشرائع والنصوص إلا إذا كان السبب منصوصا عليه. أما في اللغة فان الظاهريين على لسان ابن حزم أن يقف الدارسون للغة عند ظاهر النصوص ويعنون بمدلولات الألفاظ وحدها ولا يزيدها وهذا ما توافق مع ابن مضاء وعندما يجيء إلى علل النحو فانه لأنها "كلها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم ضبطها ونقلها وما عدا ذلك فهو مع أنه تحكم فاسد متناقض.[38]

من خلال ما سبق يتضح لنا أن ابن مضاء القرطبي نادى بصراحة وبصوت قوي ومسموع إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث وذلك لأنها تأتي بعد العلة الأولى التي تصف لنا الظاهرة اللغوية وبيان خواصها الظاهرة المدروسة.

وبجانب دعوة ابن مضاء إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث من النحو دعا إلى إلغاء القياس.

3- موقف ابن مضاء من القياس:

فهو يرفض القياس العقلي الذي يقوم على المشابهة والظن لأن هذا لا يكفي للحكم على النص اللغوي، بالإضافة أنه لايتماشى ومنهجه الوصفي، بحيث يؤدي في النهاية إلى وجود أقيسة لم يعرفها العرب، ولم تنطق بها، فهو في كل ذلك يحتكم إلى النص[39]. وهو يشير إلى هذا القياس المرفوض بقوله:"...والعرب أمة حكيمة فكيف تشبه شيئا بشيء، وتحكم عليه بحكمه، وعلة حكم الأصل غير موجودة في الفرع، وإذا فعل واحد من النحويين ذلك جهل، ولم يقبل قوله....وذلك أنهم لا يقيسون الشيء، ويحكمون عليه بحكمه، إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودة في الفرع[40]، ويبين فساده ضاربا مثلا على ذلك وهو إعراب الفعل المضارع حيث يذهب النحاة إلى أنه أعرب لشبهة الاسم، أو بمعنى أدق أنه قيس على الاسم فالاسم أصل في الإعراب والفعل فرع[41].

ولذلك قالوا إنها فرعية اكتسبها المضارع لعلتين:أولهما أنه يكون شائعا ويتخصص مثل الاسم، فإن كلمة "رجل" فيه تصدق على جميع الرجال، فإذا قلت الرجل اختص الاسم بعد أن كان شائعا والعلة الثانية التي ذكرها النحاة لشبه المضارع بالاسم أن لام الابتداء تدخل عليه كما تدخل على الاسم، فتقول :" إن زيدا ليقوم"وبهاتين العلتين –في رأي النحاة-أخذ المضارع حكم الاسم في الإعراب –و لذلك رفضها ابن مضاءوقال :إن إعراب المضارع أصل فيه مثله في ذلك مثل الاسم وحسب حكمه الإعرابي، ولا داعي لهذا القياس الفاسد[42].

ومن أمثلته أيضا لرفض القياس العقلي القائم على المشابهة والظن، قياس الخبر على النعت حيث يقول:"أما قياس الخبر على النعت فليس بالبين، لأن حكميهما مختلفان"[43].

وبالإجمال فإن ابن مضاء القرطبي يرفض القياس الذي لا تؤيده النصوص اللغوية مستندا في ذلك إلى احترام النص والوقوف عنده، فهو الأساس الذي يقبل على أساسه، ويخالف على أساسه.

4- موقف ابن مضاء من التمارين غير العملية:

وقد تمثلت هذه الدعوة في إلغاء كل التمارين غير العلمية التي أثقلت النحو بعلل ،أقيسة لا طائل تحتها سوى الجهد والخلاف والتعب، لذلك يرى ابن مضاء أنه إذا أرادنا أن نسهل نحونا العربي ونعيده إلى مجده الأول وإلى هدفه الأول فيجب أن نخلصه من هذه التمارين التي ضرب لها

مثلا من قول النحاة (ابن من البيع على مثال فعل فيقول قائل :بوع، أصله بيع فيبدل من الياء واوا لانضمام ما قبلها، لأن النطق بها ثقيل)[44]، وقد ساق ابن مضاء حجج النحويين في هذه القضية وأوضح فسادها وأنها لا حاجة لنا بها سوى التمرين فيما لا فائدة فيه، فأي فائدة نفيدها من صيغة بوع أو بيع، التي لم تأت عن العرب، والتي لسنا في حاجة إلى استعمالها؟[45] .

حيث يقول ابن مضاء: (إن الناس عاجزون عن حفظ اللغة الفصيحة الصحيحة، فكيف بهذا المضنون المستغنى عنه) [46] .كما أن دعوة ابن مضاء إلى تخليص النص من التمارين غير العملية تعد ركيزة أساسية من ركائز نظريته الداعية إلى تخفيف النحو وتسهيله على الدارسين، حتى يستطيعوا حفظه وحفظ اللغة العربية الفصيحة.

وفي الختام دعا ابن مضاء إلى إلغاء كل مالا يفيد نطقا وكانت هذه آخر دعوة في ثورته على النحو البصري، و التي تمثلت في وجوب أن يسقط من النحو الاختلاف فيما لا يفيد نطقا كاختلافهم في علة رفع الفاعل ونصب المفعول، وسائر ما اختلفوا فيه مما لا يفيد.[47]

ويبدو أن هذا تكرار لموقفه العام والثابت من العامل، إذ أننا لا نلاحظ اختلافا بين الآراء في هذا الصدد بين المهتمين بالدرس النحوي قديما. وإنما هي تمارين ورياضة لغوية لم يدع إليها احد وإنما وردت في مؤلفات وكأنها ترف ثقافي وعلمي اعتمد كثيرا بالفرضيات والتأويلات.

وعليه فان مثل هذه التمارين التي يظن أنها من النحو قد أثقلته فعلا وأصبح الناس يعتقدون انه منه ما صعب عليهم قواعدهم التي غلفت بهذه التمارين. وأصبحت الحاجة ماسة إلى إزالة الزائد منها مما لا يخدم اللغة وهذا مما يعتقد أن ابن مضاء كان يهدف إليه في هذا الموضوع أعني تخليص النحو العربي من التمارين المتعلقة به والاكتفاء بما هو متعارف عليه ونطقت به العرب.

ولعل محاولات تيسير النحو التي دعا إليها كثير من المعاصرين وما تهدف إليه تشبه ما كان يدعو إليه ابن مضاء القرطبي في موضوع تخليص هذا النحو العربي من الشوائب مثل العلل الثواني تواصل يعبر بها كل قوم على أغراضهم كما يرى ابن جني.

خاتمة:

في ختام القول يجدر بنا تسجيل أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث، هذه النتائج التي تشكل مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات التالية :

أولا: اهتمام المغاربة بالنحو وقضاياه ما أهلهم لأن يكون لهم مذهب نحوي مميز(المذهب الأندلسي).

ثانيا: أقر ابن مضاء الإعراب وبين أثره في بناء الكلام على الرغم من أنه أنكر أهم الأسس النحوية القديمة .

ثالثا: الدعوة إلى التزام النص كما نطقه المتكلم، ولا يحق الزيادة فيه تقديرا أو تأويلا.

رابعا : فتح أمام النحويين باب الإصلاح، والنظر في النحو، وفي أساليبه، وطرق دراسة اللغة.

خامسا: أدت ثورة ابن مضاء النحوية إلى إحداث ضجة علمية وبخاصة في الأزمنة المتأخرة من ذلك دعوات تجديد النحو وإصلاحه مثل ما فعل إبراهيم مصطفى وشوقي ضيف وغيرهما .

إحالات البحث:

1 الفكر التربوي في الأندلس، عبد البديع الخولي، ص 42 .

2 نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ص 218.

3 خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع للهجري، عبد القادر رحيم الهيثي، ص208

4 خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع للهجري، عبد القادر رحيم الهيثي، ص55.

5 تيسير النحو موضة أم ضرورة، محمد صاري، 119.

6 ينظر: نظرية العامل في النحو العربي، دراسة تأصيلية وتركيبية، مصطفى بن حمزة، ص 339.

7 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص80.

8 المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص 304.

9 ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص 100، 101.

10 الخصائص، ابن جني، ج1، ص 117.

11 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص 88.

12 نظرية العامل في النحو العربي، مصطفى بن حمزة، ص 342.

13 ينظر أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، ص214.

14 ينظر، الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص .79

15 الأحكام النحوية عند البصريين من خلال المدونة اللغوية الفصيحة، خير الدين هبال، ص 105.

16 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص 82.

17 ابن مضاء القرطبي و جهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص131.

18 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص79، 80.

19 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص 80.

20 المصدر نفسه، ص87 .

21 المصدر نفسه، ص 33.

22 ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص، 101.

23 تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، شوقي ضيف، ص 20.

24 المرجع نفسه، ص20، 21.

25الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ، ص 109، 112.

26، المصدر نفسه، ص 106.

27 تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، شوقي ضيف، ص21.

28 أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب نظريات البحث اللغوية الحديثة، حسام البهنساوي، ص 58

29 أصول النحو العربي، محمد خان، ص255.

30 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص 130.

31أصول النحو العربي في ضوء ابن مضاء القرطبي، بكري عبد الكريم، ص 75.

32 ينظر تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، شوقي ضيف، ص 22.

33 ابن مضاء وجهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص 110.

34 اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص 58.

35 المرجع نفسه، ص111.

36 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ، ص131.

37 أصول النحو العربي في ضوء ابن مضاء القرطبي، بكري عبد الكريم، ص .77

38 ينظر المرجع السابق، ص 79.

39 ابن مضاء وجهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص 128 .

40 الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص .156

41 جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو، فادي صقر أحمد عصيدة، ص 124.

42 تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، شوقي ضيف، ص 24، 25.

43 ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، معاذ السرطاوي، ص 129.

44 ابن مضاء، الرد على النحاة، ص 138.

45 الأحكام النحوية عند البصريين من خلال المدونة اللغوية الفصيحة، خير الدين هبال، ص118.

45 المصدر نفسه، ص 44.

46 ابن مضاء، الرد على النحاة، ص 141.

المصادر والمراجع:

- ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية-معاذ السرطاوي-دار مجدلاوي-1988-ط1.

- الأحكام النحوية عند البصريين من خلال المدونة اللغوية الفصيحة- خير الدين هبال- مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير-كلية الآداب واللغات –جامعة مولود معمري –تيزي وزو-(د.ت) .

- أصول النحو العربي في ضوء ابن مضاء القرطبي –بكري عبد الكريم دار الكتاب الحديث – 1999-ط1.

- أصول النحو العربي-محمد خان-مطبعة جامعة محمد خيضر-بسكرة-2012.

- أصول النحو العربي-محمد خير الحلواني-مطبعة افريقيا الدار البيضاء-(د.ت)-ط2.

- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب و نظريات البحث اللغوية الحديثة – حسام البهنساوي - مكتبة الثقافة الدينية – مصر – 1994.

- تيسير النحو التعليمي قديما و حديثا مع نهج تجديده –شوقي ضيف- دار المعارف -القاهرة – ط2.

- تيسير النحو، موضة أم ضرورة-محمد صاري.

- جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو-فادي صقر أحمد عصيدة-مذكرة ماجستير-كلية الدراسات العليا-جامعة النجاح الوطنية-نابلس-فلسطين-2006.

- خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري – عبد القادر رحيم الهيثي- قار يونس بنغازي – 1993-ط2.

- الرد على النحاة- أحمد بن عبد الرحمن ابن مضاء القرطبي-تح:شوقي ضيف-دار الفكر العربي- القاهرة-ط3.

- الفكر التربوي في الأندلس – عبد البديع الخولي- دار الفكر العربي- 1985 –ط2.

- نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة – محمد الطنطاوي- دار المعارف- القاهرة –ط2.

- نظرية العامل في النحو العربي-دراسة تأصيلية وتركيبية-مصطفى بن حمزة-2004م-ط1.